الفصل الأول

بيئات الشعر الأموى

١

الحجاز

يمتد الحجاز فى غربىّ الجزيرة العربية محاذيًا للبحر الأحمر من أيلة (العقبة) شمالا إلى اليمن جنوباً . وكلمة الحجاز ، ومعناها الحاجز ، تدل على حقيقة هذا الإقليم ، فهو سلاسل من جبال تسمى جبال السَّرَاة تحجز بين نَجْد شرقًا وتِهامة غربًا ، وتتخلل هذه السلاسلَ وديانٌ ذات زرْعٍ وأخرى غير ذات زرع . وفى واد من الوديان الأخيرة تقوم مكة حول بئر زمزم بينما تقوم الطائف على بعد سبعين ميلاً جنوبيها فى بقعة خصبة تشتهر بالبساتين النضرة ، وتقوم فى الشمال يَثْرِب فى هذه الواحة الجميلة التى شقَّتها الطبيعة بين حرَّات مختلفة .

وكان الحجاز فى العصر الجاهلى طريق القوافل المُصْعِدَة شمالاً إلى البحر المتوسط ، إلى الشام ومصر ، والمنحدرة جنوبًا إلى حوض المحيط الهندى ، إلى اليمن والحبشة[1] . وقد استقرت مفاتيح هذه القوافل وما تحمل من عُرُوض التجارة فى أيدى أهل مكة فكانت قوافلهم تجوب الصحراء شمالاً وجنوبًا ، وشرقًا أيضًا حيث كانت تحمل سِلَع الفرس ، وما ينزل على الخليج الفارسى من سِلَع الهند .

ونشطت مكة فى هذه التجارة أواخر العصر الجاهلى نشاطًا هائلاً ، حتى ليظن بعض الباحثين أنها كانت جمهورية تجارية ممتازة[2] ، فقد كانت حينئذ أهم حلقة للاتصال بين حوض البحر المتوسط وحوض المحيط الهندى . وساعد على ذلك

---

(١) انظر هنا : O'Leary, Arabia Before Muhammad (London, 1927) p. 179.

(٢) انظر : Lammens, La Mecque (Beyrouth, 1924) p.175.

وانظر فى شئون مكة المالية ، الفصول : الثامن والتاسع والعاشر .

أن طريق المَوْصِل إلى الشام كان مُقْفَلاً بسبب الحروب المستمرة بين الفرس والروم ، وأيضًا فإن الملاحة فى البحر الأحمر ضعفت بسبب كثرة القراصنة فيه ، فلم تعد هناك وسيلة للصلة بين الشمال والجنوب ونَقْل توابل الهند وعُروض اليمن وسِلَع الحبشة والعراق سوى هذه القوافل التى أمسكت مكة بزمامها .

وهذا المركز لمكة فى الجاهلية جعلها — بحكم قوافلها وتجارتها — تتصل بعناصر مسيحية وإغريقية وفارسية مختلفة ، فقد كان بها جالية من الحبشة والروم المسيحيين ، ويظهر أنه كان بها لبيزنطة مندوبون[1] . وهذا لا شك يؤكد الصلة بينها وبين العالم المسيحى الإغريقى ، عالم البحر المتوسط ، وهو العالم الذى كانت تَتَّجِر فيه . وكان بعض القساوسة يزورون أسواقها ويعظون فيها الناس[2] ، ويذكر اليعقوبى فى تاريخه أن جماعة من أهل مكة تنصروا فى الجاهلية ، منهم ورقة بن نوفل[3] .

وفى يَثْرِب وعلى طول الطريق إلى الشام فى الشمال كانت هناك مستعمرات يهودية منبثَّة فى خَيْبَر ووادى القُرَى وتَيْمَاء ، وهى مستعمرات رحَل إليها اليهود منذ اضطهدهم أباطرة الرومان من مثل أدريان الذى طردهم من فلسطين عام ١٣٢ م .

وقد استمر اليهود قبل نزولهم الحجاز أحقابًا متطاولة تحت الحكم اليونانى الرومانى وكانوا منتشرين فى حوض البحر المتوسط على العموم ، وكان إذ ذاك حوضًا للثقافة ، وطبيعى أيضًا أن يتسرب شىء من ذلك إلى يهود الحجاز ، يحملونه معهم — فى أثناء هجرتهم — تارة ، ويحمله إليهم يهود جُدُد راحلون تارة ثانية .

ومعنى ذلك أن الحجاز فى العصر الجاهلى كان متصلاً بالحضارة الرومانية الإغريقية وأيضًا فإنه اتصل بالحضارة الفارسية ، إذ كان كثير من أهله يفدون على الحيرة ويتصلون بالفرس ، ويأخذون عنهم ، ففى السيرة أن النَّضْرَ بن الحارث « قَدِم الحيرة وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رُسْتَم وإسْفِنْدِيار ،

---

(١) انظر أوليرى ص ١٨٤ ولامنس ص ٢٥٧ وارجع إلى أسد الغابة (طبع المطبعة الوهبية) ٣٢/٣ ، ٤٢٧/٤ وكذلك ١٩٤/٥ ، ٤٦٢/٥ ، ٤٨١/٥ حيث تجد أسماء رومية لرجال ونساء كانوا فى مكة قبل الإسلام ، وانظر السيرة الحلبية (طبعة القاهرة سنة ١٣٠٨ هـ) ٧٥/١ .

(٢) البيان والتبيين (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٣٠٨/١ .

(٣) اليعقوبى (طبعة هوتسما) ٢٩٨/١ .

فكان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسًا، فذكّر بالله ، وحذّر قومه ما أصاب مَن قبلهم من الأمم مِنْ نقمة الله ، خلفه فى مجلسه إذا قام ، ثم قال : أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثًا منه ، فهلمّ إلىّ ، فأنا أحدثكم أحسن من حديثه ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورسْتَم وإسْفِنْديار[١]». وفى الأغانى أن ابن جُدْعَان «كان سيدًا من قريش فوفد على كسرى، فأكل عنده الفالوذ، فسأل عنه ، فقيل له : هذا الفالوذ ، قال وما الفالوذ ؟ قالوا لُبَاب البُرّ يُلْبَك مع عسل النحل، قال ابغونى غلامًا يصنعه ، فأتوه بغلام يصنعه ، فابتاعه ، ثم قدم به مكة معه[٢]» . واسم سلمان الفارسى الذى أسلم حين هاجر رسول الله إلى المدينة ذائع مشهور .

فالحجاز لم يكن مُغْلَقًا فى العصر الجاهلى أمام الحضارتين الفارسية والرومانية الإغريقية ، بل كان على اتصال بهما، حتى إذا أفاء الله عليه نعمة الإسلام وأخذت ألويته تخفُق فى ربوع فارس والشام ومصر اندمج اندماجًا تامًّا فى الحضارتين ، إذ صبَّت فيه كنوز الأرض ، وانصبَّت معها ألوان الحضارتين الكبيرتين .

وهنا يحدث تطور واسع فى حياة الحجاز ، فقد أصبح لا يقل فى شىء عن العالمين المتحضرين من حوله، إذ أصبح أبناؤه — وخاصة من قريش — سادةَ العالم ، وقد احتكوا احتكاكًا شديدًا بأبناء الأمم الأجنبية الذين استرقُّوهم ، وأحضروهم معهم إلى مكة والمدينة ، لينهضوا بهما فى جميع جوانب الحياة .

ويذهل الإنسان حين يقرأ ما صار إليه الصحابة من ثراء عريض، وخاصة كبارهم ، فقد روى الرواة أن الزبير بن العوّام توفّى عن خمسة وثلاثين ألف ألف درهم ، وقيل بل عن اثنين وخمسين ألف ألف[٣]، وتوفى طلحة بن عبيد الله عن ثلاثين ألف ألف درهم[٤]، ويقال إن دخْلَه يوميًّا من بعض ضياعه فى العراق بلغ ألف دينار . وقد عقد المسعودى فى كتابه (مروج الذهب) فصلاً طريفًا عن هذه الثروات الكبيرة ، فقال: إن يَعْلَى بن مُنْيَة مات عن خمسمائة ألف

---

(١) السيرة النبوية (طبع الحلبى) ١/٣٢١ .
(٢) أغانى (طبع دار الكتب) ٨/٣٢٩ .
(٣) طبقات ابن سعد (طبع ليدن) ج ٣ ق ١ ص ٧٧ .
(٤) ابن سعد ج ٣ ق ١ ص ١٥٨ .

دينار ، ومات زيد بن ثابت عن مائة ألف دينار ، وبلغ الربع فى تركة عبد الرحمن ابن عوف أربعة وثمانين ألف دينار ، أما عثمان بن عفان فخلّف خمسين ومائة ألف دينار وألف ألف درهم وعقارات قيمتها مائة ألف دينار . وعلّق المسعودى بعد ذكره لهذه الثروات الضخمة بقوله : « وهذا باب يتسع ذكره ، ويكثر وصفه[١] » .

ولا ريب فى أن هذا الثراء الذى سال فى حجور الحجازيين وخاصة من أهل مكة والمدينة تبعه تبدّل واسع فى حياتهم وحياة أبنائهم فقد اتخذوا القصور وَبَنَوْها بالآجُرِّ والجِصِّ والسَّاج ، وجعلوا فى أعلاها الشرُفات ، وكانت قصور عثمان وسعد بن أبى وقاص وطلحة والمقداد وعبد الرحمن بن عوف تسترعى الأنظار[٢] . وأصاب مكةَ ما أصاب المدينة ، فقد بنى فيها معاوية دورًا يقال لها « الرُّقَيْط » لاختلاف ألوانها ، وأحضر لها البنّائين من الفرس[٣] ، وتبعه سَرَاةُ مكة يَشيدون قصورًا باذخة فى عهده وبعد عهده . روى الأزرقى أن ابن عباس قال لابن صفوان صاحب عبد الله بن الزبير : « هيهات هيهات ! تركت والله سُنَّة عمر ، قَضَى عمر أن أسفل الوادى وأعلاه مُنَاخ للحجاج وأجْيَادًا وقُعَيْقِعان للمريحين والذاهبين ، واتخذتها وصاحباتُ دورًا وقصورًا[٤] » .

وعلى هذا النحو أصبحت المدينتان الكبيرتان فى الحجاز لا تَقِلاّن فى شىء عن مدن البحر المتوسط وقد أخذتا تَغرقان فى الحضارات الأجنبية إلى آذانهما ، ولم يحُلْ تحوُّل الخلافة إلى دمشق فى العصر الأموى بينهما وبين شىء من ذلك ، بل لعله أعطاهما الفرصة لكى تنهلا من الحضارات الأجنبية كما تريدان ، أو كما يريد أهلهما . وفرق بعيد بين الصحابة وأبنائهم فى التحضر ، فإن أولئك عاشوا فى الجاهلية ، وفى شَظَف العيش ، أما أبناؤهم فإنهم عاشوا فى عصر جديد ، هو عصر الفتوح والثراء ، وكان الأمويون يكثرون من نَثْر الأموال عليهم ، حتى يصرفوهم عن الخلافة[٥] .

---

(١) مروج الذهب (طبع باريس) ٤/٢٥٥ .
(٢) المصدر نفسه ٤/٢٥٤ .
(٣) أغانى (طبع دار الكتب) ٣/٢٨١ .
(٤) أخبار مكة للأزرقى (طبع ليبسك) ص ٣٩٢ .
(٥) انظر الفخرى (طبعة درنبرغ) ص١٤٥ =

وليس كل ما يلاحظ فى حياة الحجازيين فى أثناء العصر الأموى القصور والأموال فحسب ، بل يلاحظ أيضًا الترف ، فقد طَعِمُوا وشربوا فى أوانى الذهب والفضة[١] ولبسوا الخَزَّ والديباج والإسْتَبْرَق والحُلَلَ الموشَّاة[٢] ، وغالوا فى ذلك ، فكان العَرْجىّ الشاعر يلبس الحلتين بخمسمائة دينار[٣] أو نحو ثلاثمائة جنيه ، وكان مروان بن أبان بن عثمان يلبس سبعة قُمُص كأنها دَرَج بعضها أقصر من بعض ، وفوقها رداء عدنىّ بألفى درهم[٤] . أما النساء فكنّ يلبسن الثياب الرقيقة الشفافة[٥] ، وكن يبالغن فى التحلّى باللؤلؤ والياقوت والجواهر الكريمة[٦] .

ومَرَّ بنا فى أول هذا الكلام أن الحجاز كان على صلة بالحضارتين الفارسية والرومانية الإغريقية فى الجاهلية ، أما فى هذا العصر فقد اندمج اندماجًا تامًّا فى هاتين الحضارتين بواسطة الرقيق الأجنبى الكثير الذى حَفَل به منذ الفتوح . ويكفى أن نعرف أن معاوية أرسل إلى عمر أربعة آلاف من سَبْى قَيْسَارِيَّة[٧] وحدها ولا بد أن سَبْيًا كثيرًا جدًّا دخل من المدن الرومية الأخرى التى فُتحت ثم المدن الفارسية . ولعل مما يوضح كثرة هذا الرقيق الأجنبى فى الحجاز ما يُرْوَى من أن الزبير بن العوام ترك ألف عبد وأمة[٨] ، وأيضًا فإنه يروى أن من قُتلوا فى موقعة الحرَّة بالمدينة لعهد يزيد بن معاوية من الموالى بلغوا خمسة آلاف ، بينما قُتل من الأنصار وقريش ثلاثة آلاف[٩] . فإذا قلنا بعد ذلك إن الحجاز اقتحمته فى هذا العصر الأموى الحضارتان الفارسية والرومانية الإغريقية لم نكن مجاوزين للواقع فى شىء .

ومعنى ذلك أن الحجاز إن كان قد فتح الدولتين الكبيرتين : فارس وبيزنطة ،

= والعقد الفريد (طبع القاهرة سنة ١٣٠٢ هـ) ١٤٥/١ والطبرى (طبعة دى غويه) ٤/٢ وكذلك ٤٠٢/٢ ، ٤٢٢/٢ .

(١) ابن عبد ربه ١١١/١ .

(٢) أغانى (طبع دار الكتب) ٢٢١/١ ، ٢٧٨/١ ، وكذلك ٣١٠/١ ، ٦٥/٥ ، ١٣/٦ و (طبعة الساسى) ٢٠٤/١٨ .

(٣) أغانى ٣٩٥/١ .

(٤) أغانى (طبعة الساسى) ٨٩/١٧ .

(٥) أغانى (طبع دار الكتب) ٤٠٤/١ ، وديوان ابن أبى ربيعة (طبع ليبسك) ص ٣ ، ٢١ ، ٤٥ ، وابن سعد ٣٥٢/٨ .

(٦) أغانى (طبع دار الكتب) ٢٧٣/٨ و (طبع الساسى) ١٦١/١٤ وابن سعد ٣٤٣/٨ وديوان ابن أبى ربيعة ص ٢٥ .

(٧) فتوح البلدان للبلاذرى (طبع دى غويه) ص ١٤٢ .

(٨) المسعودى ٢٥٤/٤ .

(٩) انظر كلمة حرة فى معجم البلدان لياقوت .

فإن حضارتيهما فتحتاه عن طريق هذه العناصر الكثيرة التى انتقلت إليه ، وقامت على خدمة أبنائه وإعداد الحياة لهم . يقول ابن خلدون : « لما ملك العرب فارس والروم استخدموا بناتهم وأبناءهم ، واستعملوهم فى مهنهم وحاجات منازلهم ، واختاروا منهم المَهرة فى أمثال ذلك والقَوَمة عليه ، فأفادوهم علاجَ ذلك والقيامَ على عمله والتفننَ فيه ، مع ما حصل لهم من اتساع العيش والتفنن فى أحواله ، فبلغوا الغاية من ذلك وتطوّروا بطور الحضارة والترف فى الأحوال ، واستجادوا المطاعم والمشارب والملابس والمبانى والأسلحة والفرش والآنية وسائر الماعون والخُرْثِىّ[1] ، فأتوا من ذلك وراء الغاية[2] » .

وأظن فى هذا ما يوضح كيف تطورت الحياة فى الحجاز تحت تأثير العناصر الجديدة من الموالى ، فقد تطورت هناك الحياة المادية تطوراً كبيراً ، ومسحت الأيدى الأجنبية عليها ، ونقلتها إلى ما يشبه الحياة المألوفة لها فى مدن بنى ساسان ومدن البحر المتوسط .

وسرعان ما وُجدتْ فى مكة والمدينة هذه الطبقةُ العاطلة التى توجد فى الأمة حين تتحضر ، فقد فرغ كثير من الشباب ، وأتتهم الدنيا بحذافيرها ، فماذا يصنعون بأوقاتهم ؟ وكيف يُمْضُونها ؟ . إن طائفة منهم عُنيت بالدرس الدينى فى المساجد ، ولكن بقيت طوائف تريد اللهو والمتعة بالحياة . وهنا نجد هذا الرقيق الأجنبى ينهض بفنّ كان معروفاً فى الجاهلية ولكنه كان لا يزال قريباً من طور السذاجة ، وهو فن الغناء ، فنراه يُقْبل على هذا الفن كى يُرَقّيه عن الشباب ونراه يفتح له النوادى فى المدينة ومكة جميعاً ، بحيث تصبح نواديه أشبه ما تكون بدور الخيالة والمسارح فى عصرنا . واشتهر فى المدينة نادى جميلة ، أو كما كانوا يقولون دارها التى خرّجت مئات المغنين والمغنيات .

وكل من يقرأ الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى يجده زاخراً بأسماء المغنيات والمغنين من الموالى الذين عاشوا فى مكة والمدينة من مثل ابن سُرَيْج ، وابن مِسْجَح ، وابن مُحْرز ، ومثل طُوَيس ، وسائب خاثر ، ونشيط ، ومَعْبَد ،

---

(١) الخرثى : أثاث البيت .

(٢) مقدمة ابن خلدون (طبع بولاق) ص ١٤٤

وسلاَّمة القَسّ ، وحَبَابة ، وغير هؤلاء كثير . وتحت أيديهم وأيدى زملائهم وزميلاتهم ظهرت نظرية الغناء الجديدة المعروفة فى كتاب الأغانى إذ يذكر أبو الفرج الصوت ، أو كما نقول الآن الدور ، ثم يذكر وراءه الرَّقيم الموسيقى الخاص به ، من مثل ثَقيل أول ، وخفيف الثقيل ، وخفيف الرَّمَل ونحو ذلك .

وإذن فالحجاز هو الذى استحدث نظرية الغناء الجديدة عند العرب ، استحدثها موالى مكة والمدينة ، ولم يستحدثها أهل دمشق البيزنطية ، ولا أهل البصرة والكوفة القريبتين من فارس . ولعل فى هذا دليلا واضحًا على أن البلدتين القديمتين فى الحجاز لم تقصِّرا هذا العصرَ فى التحضر والحضارة . وإن الإنسان ليخيل إليه كأن الناس هناك فرغوا للهو والغناء وسماع المغنين والمغنيات ، فقد صَفَت لهم الدنيا إلا فترة قليلة نحو ثمانى سنوات ، هى سنوات ابن الزبير ، أما بعد ذلك وقبل ذلك فكانت الريح ساكنة ، وكان العيش هادئًا رَضِيًّا ، وقد أقبلوا يَعُبُّون من الترف والنعيم ، كما أقبلوا على الغناء يسمعون ويطربون .

وأكبر الظن أن هذه البيئة من بيئات الشعر فى عصر بنى أمية قد اتضحت لنا ، فهى من ناحية بيئة تحضَّرت ، وأترَفَ ذوقها ، وأصبح أهلها يمثلون رقَّة فى الشعور ورقةً فى الحس لم تكن لآبائهم ، لسبب طبيعى ، هو أنَّهم أبناء حضارة جديدة وعصر جديد ، فيه ترف ونعيم ، وفيه هذه التأثيرات الحضارية التى تُرْهِف الحس ، وترقِّق الشعور ، بل تجعل بعض الناس حسًّا وشعورًا خالصين .

وطبيعى أن ينفصل شعر هذه البيئة المتحضرة عن الشعر الجاهلى القديم ، فكل من يتابع درسَ شعرِ الحجازيين لهذا العصر يلاحظ أن الهجاء يقلّ فيه قلة شديدة ، كما يلاحظ أن المديح لم يعد اللونَ الصارخ فى الشعر ، فإن أكثر الحجازيين لم يكونوا فى حاجة إلى التكسب بشعرهم ، إنما اللون الذى يستنفدهم هو الغزل ، وهو لون يتلاءم مع رقة الحس ورقة الشعور ، وأيضًا فإنه يتلاءم مع فن الغناء الجديد .

ومن هنا كان أكثر الشعراء فى الحجاز لهذا العصر شعراء حُبٍّ وغزل على نحو ما نعرف عند عمر بن أبى ربيعة والعَرْجى وابن قيس الرقيات فى مكة

والأحْوَص فى المدينة ، فقد ذهب شعرهم جميعًا فى التغنى بقصة الحب وأحداثه ووقائعه ، وعبروا فى ذلك عن رقة حسٍّ شديدة ، وكاد شعرهم يتحول فى كثير من جوانبه إلى أنفاس خالصة .

ومعنى ذلك أن الشعر طُبِعَ فى أثناء العصر الأموى فى الحجاز بطوابع حضارية أثرت فى الحس والشعور ، كما أثرت فى عمل الشعر نفسه عن طريق فَنّ الغناء ونظريته الجديدة . ولعل من أهم ما يلاحَظ بصدد هذا الفن أنه أحال شعر الحجازيين إلى ما يشبه أن يكون عملا مشتركا بين الشعراء وبين المغنيات والمغنين ، إذ كان الشاعر ينظم شعره ، ثم يعرضه على مَنْ حوله من المغنين والمغنيات ليغنوا به ، فكانوا يحوِّرون فيه حتى يتلاءم مع ألحانهم وأنغامهم .

وإذن فالشعر لم يعد فى الحجاز عملا مستقلا يقوم به الشاعر ، بل أصبح عملا يعتمد على عمل آخر ، أو قل أصبح فنًّا يعتمد اعتمادًا على فن الغناء وألحانه وأنغامه ، وهو فن كان ينهض به الموالى من المغنين والمغنيات .

وهؤلاء الموالى لم يؤثروا فى الشعر فقط عن طريق نظرية الغناء التى استحدثوها ، بل أخذوا يؤثرون فيه مباشرة ، فإن كثيرًا منهم أخذ يتقن صناعته ، بحيث لا نصل إلى أواخر القرن الأول للهجرة وأوائل الثانى حتى نجد بين الموالى مَنْ يشتهرون بنظم الشعر من مثل أبى العباس الأعمى فى مكة[١] وإسماعيل بن يَسَار النَّسائى وإخوته فى المدينة[٢] . وأخذ يظهر بين المغنين الأجانب أنفسهم من يحسن نَظْم الشعر مثل أبى سعيد مولى فائد ، وكان مغنيًا وشاعرًا[٣] ، ومثل سَلاَّمة القَسّ وكانت تحسن الشعر والغناء جميعًا[٤] .

فالحجاز فى هذا العصر الأموى كان مسرحًا لشعر غنائى تام يقوم على وصف قصة الحب من جهة كما يقوم على الصلة الدقيقة بالغناء وألحانه من جهة أخرى ، فهو شعر قِيلَ ليُغنَّى ، وليُصْحَب بالعزف والضرب على الآلات الموسيقية مما سنعرض له فى غير هذا الموضع .

---

(١) أغانى (طبع الساسى) ١٥/٥٧ .
(٢) أغانى (طبع دار الكتب) ٤/٤٠٨ وما بعدها .
(٣) أغانى ٤/٣٣٠ .
(٤) أغانى ٨/٣٣٣ .

٢

نجد

هى الصحراء الداخلية لجزيرة العرب ،وهى تمتد من الحجاز غربًا إلى الخليج العربى ووادى الفُرَات شرقًا ، وليس فيها أنهار جارية ، إنما فيها أودية تهبط فيها الأمطار ، وتنمو حولها بعض الأعشاب والمراعى. ويمكننا أن نميز فى هذه الرقعة الكبيرة صحراء النفود التى تقع فى شماليها ، وتشتهر بكثبانها الرملية ، وقلة آبارها ، ولولا رطوبة الجو بها التى تسمح بنمو النباتات الصحراوية ذات الجذور الطويلة من مثل الأثْل والأرْطَى وكذلك نمو بعض الأعشاب لتعذرت الحياة فيها. وفى جنوبىّ هذه الصحراء الشمالية نجد جبلى طَيِّئ : أجَأ وسَلْمى ، وهما يمتدان فى شكل هلال كبير ، والجو بهما صحى ، والطقس منعش ، وتسقط بعض الأمطار التى تؤهل للمراعى .

وتضيق صحراء النفود كلما اتجهنا شرقًا حتى نصل بواسطة برزخ ضيق إلى صحراء الدَّهْنَاء الشرقية ، تلك الصحراء التى تسقط سقوطًا شديدًا نحو الخليج العربى ، وتمتاز بكثرة وديانها وينابيعها . وإذا انتهينا إلى جنوب هذه الدهناء وسرنا غربًا، أصبحنا فى دَهْناء كبيرة تسمى الربع الخالى ،وهى تُعَدُّ مجهولة حتى اليوم . والبقية الباقية من نجد فى شمالىّ الربع الخالى وشرقىّ الحجاز تكثر فيها المرتفعات ، كما تكثر الوديان ، إلا أن طقسها أكثر احتمالا .

وهذه الصحراء هى موطن البدو أو القبائل الرُّحَّل من العرب الذين يرعون الأغنام والأنعام ، ويتنقلون حول المراعى معتمدين على ما تهبه السماء لهم من مطر ، ولعلهم من أجل ذلك سموه غَيْثاً . وإذا احتبس هذا الغيث جَفَّت الحياة وهلكت القطعان والرِّعاء ، ولذلك كثرت رحلة البدو فى الصحراء يطلبون مساقط الغيث ، وينتجعون الكلأ والماء .

وإذا ضاقت بهم صحراؤهم رحلوا إلى المناطق المتحضرة مِنْ حولهم يغزون

أو ينهبون ، وأحيانًا نراهم يقيمون جنبًا إلى جنب مع أصحاب هذه المناطق ، ويحاولون أن يتعلموا الزراعة منهم كما حدث لقبائل ربيعة فى العراق قبل الإسلام، وكان ذلك سببًا مهما فى اقتباسها بعض العادات والأفكار من سكان أحواض دجلة والفرات .

ولكن الكثرة الغالبة بقيت فى الصحراء تهاجر داخليًا من كلأ إلى كلأ ومن مرعى إلى مرعى ، وتقتتل فى سبيل ذلك مع جيرانها ومن تصادفهم فى طريقها ، وقد طبع ذلك الحياة الجاهلية فى نجد بطابع الغزو والإغارة، فكثرت أيام العرب ، وكثرت حروبهم .

ومعنى ذلك أن حياة البدو فى نجد لم تعرف الاستقرار ، فقد كانت من جهة حربًا مستمرة ،وكانت من جهة ثانية رحيلاً مستمرًا . وهذا الرحيل المستمر الدائر لم يؤهل هؤلاء البدو لحضارة ، بل جعلهم فى شبه عزلة ، فأسوار الصحراء تفصل بينهم وبين من حولهم من الأمم المتحضرة ، وليس عندهم من الفرصة أو الوقت ما يجعلهم يستقرون ويعملون فى سبيل حضارة متدرجة . ومن هنا تخلفت قبائل نجد عن التقدم فى مضمار الحضارة إلا ما سقط إلى بعضهم سقوطًا عن طريق احتكاكهم بسكان العراق وسكان الشام .

ويقسم النسابون قبائل العرب قسمين كبيرين يتشعبان من قحطان وعدنان ، ويسميان القبائل القحطانية والعدنانية[1]، وهو تقسيم يُرَدُّ إلى حقيقة تاريخية، فالقبائل القحطانية أو اليمنية قبائل جنوبية هاجرت إلى الشمال فى أزمان متفرقة، وخاصة بعد أن ضعفت الدولة الحميرية ، أى منذ القرنين الرابع والخامس للميلاد، أما القبائل العدنانية فهى القبائل التى كانت تسكن فى الشمال دائمًا .

والمعروف أنه كانت هناك لغة جنوبية تفترق عن لغة عرب الشمال ، وهى اللغة الحميرية ، وهى أقرب إلى الحبشية منها إلى العربية الشمالية. وكان عرب الجنوب أكثر تحضرًا من عرب الشمال ، وهم فى واقع الأمر متحضرون تبدّوْا، غير أن من يرجع إلى أخبار هذه القبائل حين ظهور الإسلام يلاحظ أنهم طُبِعوا بطوابع

(١) انظر هنا كتاب أوليرى السابق ص ١٥ وما بعدها .

عرب الشمال لا من حيث البداوة فقط ، بل من حيث اللغة أيضًا ، فقد هجروا لغتهم الحميرية أو اليمنية إلى العربية الشمالية ، ولذلك قلما نلاحظ فروقًا بين لغة شعرهم ولغة شعر جيرانهم العدنانيين .

والذى يلفت النظر حقًّا هو أن قبائل نجد تكتلت فى هذين الفرعين الكبيرين وقامت بينها منافسات كثيرة على أساس هذا التكتل ، وهو ما يُعْرَفُ فى تاريخ العرب بالعصبيات القحطانية والعدنانية ، أو اليمنية والمضرية . وقد ظلت هذه العصبيات بعد الإسلام فى صورة لا تدع للباحث مجالا للشك فى أنها تعبِّر عن نزعات قديمة توارثتها القبائل العربية .

وأهم القبائل القحطانية لَخْم وقد نزلت فى الحيرة ، وجُهَيْنَة وكَلْب وقد نزلتا فى بادية الشام ، وغَسَّان التى نزلت على الحدود السورية ، وعامِلَة وجُذَام وقُضَاعة اللائى نزلن شمالىّ الحجاز وعلى حدود فلسطين ، وعُذْرَة التى نزلت بالقرب من تَيْمَاء ووادى القُرَى . ثم الأوس والخَزْرَج فى يثرب ، وخُزاعة حول مكة ، وطَيِّىء فى جَبَلى أجَأ وسَلمى ، وبَجِيلة فى الطائف ، وأزْد السَّراة فى الحجاز ، وأزد عُمَان ، وكِنْدة فى حَضْرَمَوْت ، وهَمْدان ومَذْحِج فى اليمن ، وإلى مذحج تنتسب قبيلة الحارث بن كعب ، وتُعْرَفُ ببَلْحارث ، وكانت تنزل ناحية نَجْران .

وأهم القبائل العدنانية بَكْر وتَغْلب وكانتا تنزلان فى الشمال الشرقى للجزيرة ، وتَمِيم وكانت تنزل فى صحراء الدَّهْناء ، وعبد القَيْس وكانت تنزل فى البحرين ، وكِنانة وهُذَيل بالقرب من مكة ، وأسد فى شمالى نجد . ثم قبائل قَيْس عَيْلان ، وأشهرها هوازن وسُلَيْم وعامر وغَطَفَان : وإلى غطفان تنتسب عَبْس وذُبْيَان . وكانت هذه القبائل تنزل فى شرقىّ الحجاز .

وواضح أن أكثر القبائل العدنانية كان يقيم فى داخل الصحراء العربية ، وعلى العكس كانت القبائل اليمنية يقيم أكثرها على الحدود وفى منشآت متاخمة للأمم الأجنبية . وجعلها ذلك تحتك أكثر من القبائل العدنانية بالحضارات المجاورة فى العراق والشام ، ولذلك كثرت فيها المسيحية .

على أنه ينبغى أن نلاحظ هنا أن ما أشرنا إليه من انعزال قبائل نَجْد عن

جيرانهم المتحضرين إنما هو نظرة عامة ، ولكن من يتفحّص صلتهم بمن جاورهم ، وخاصة هذه القبائل القحطانية التى كانت تنزل متاخمةً للفرس فى العراق والبيزنطيين فى الشام ، يرى أنهم لم يكونوا منعزلين ألبتة عن جيرانهم بل كانوا على صلة دائمة بهم . وكان للقوافل التجارية التى تحدثنا عنها قبل ذلك أثر لا ينكر فى هذه الصلة ، وكذلك الأسواق التى أقامتها الدول المجاورة لتبادل السلع معهم . وليس ذلك فحسب فإن المستعمرات اليهودية كانت منبثة فى الحجاز ، وكانت البعوث المسيحية نشيطة ، واستطاعت أن تُنَصِّر نَجْران . فذلك كله كان له أثره فى تسرب بعض العناصر الحضارية إلى الجزيرة العربية .

وكما قدمنا كانت هذه القبائل تعيش فى الجاهلية على الرعى والارتحال وراء مساقط الغيث ، وهى معيشة اعتمدت على منافسات قَبَلِيَّة شديدة بين الفرعين الكبيرين من القحطانيين والعدنانيين ، ثم انقسم الفرعان إلى غصون وشعب كثيرة ، كلها تحاربت وكلها تقاتلت ، بحيث كان تاريخ العرب فى الجاهلية ليس إلا أيامًا وحروبًا ، يتربّص فيها بعضهم ببعض ، ويأكل فيها بعضهم بعضًا .

وحاول الإسلام أن يميت فيهم هذه الروح ، واستجابوا لهديه إلا نفرًا ظلوا يحكّمون السيوف ، ويعظّمون الدماء ، وينفعلون انفعالاً شديدًا عندما تُمَسّ كرامتهم بأدنى شىء ، إلا أن يدخل السلطان فيما بينهم . ونستطيع أن نلاحظ فى وضوح أنهم ظلوا بعد الإسلام محتفظين بكثير من صفات بداوتهم ، إذ كانت الجيوش العربية الفاتحة تموّن منهم ، وكانوا من أجل ذلك كثيرى الهجرة شرقًا وغربًا لحاجة الثغور إليهم ، ولأن الدولة كانت ترى أن يقوم العرب أنفسهم بنشر الإسلام وفتح البلدان .

على أن هذه الهجرة أحدثت شقاقًا جديدًا بين هذه القبائل ، فإن القبائل القيسية المضرية حين هاجرت إلى الشام والجزيرة وزاحمت كلبًا فى الشام وأخواتها من القبائل اليمنية ، كما زاحمت تغلب فى الجزيرة ، شَبَّت الحرب جَذَعَة بينها وبين هذه القبائل التى زاحمتها . وسرعان ما رأينا الجماعتين تتحولان إلى ما يشبه حزبين سياسيين ، فكانت تغلب العدنانية وكلب وغيرها من القبائل اليمنية حزبَ الدولة الرسمى ، وكانت قيس تقف ، بحكم منازعتها لأصحاب هذا الحزب فى

الصفوف المعارضة .

وقد ورث العصر الأموى بسبب هذه الخصومة أيامًا كثيرة ، وأشعارًا كثيرة أيضًا نظمتها كل قبيلة، أو قُل نظمها كل حزب فى الانتصار لنفسه . ولعل الجزء الخامس من كتاب أنساب الأشراف للبلاذرى خَيْرُ مَرْجِعٍ لهذه الأشعار الكثيرة التى نظمها الفريقان فى تلك الحروب .

أما القبائل التى قَرَّت واستمرّت فى داخل الجزيرة فقد وُجِدَ عندها نشاط أدبى محدود ، إذ وجد بينها شعراء يشبهون آباءهم الجاهليين فى طباعهم وفى موضوعاتهم التى طرقوها . على أن هناك جانبًا إسلاميًّا جديدًا فى حياتهم لم يكن مألوفًا لهم فى الجاهلية ، وكان له صداه فى شعرهم ، ونقصد الجانب السياسى وما نظَّمته الدولة بينها وبينهم من العلاقات، وما فَرَض عليهم الإسلام من الصدقات ، فإن ذلك دعا إلى إقامة وُلاة وسُعاة عليهم يجمعون الصدقات منهم ، ويظهر أن بعضهم كان يشتطُّ فى ذلك ويبالغ ، فكثر سخطهم على الوُلاة والسعاة ، وصوّر شعرهم ذلك تصويرًا طريفًا ، مما سنعرض له فى مكان آخر .

ومن غير شك كان النشاط الأدبى فى نجد فى أثناء هذا العصر الأموى أقلّ مما كان عليه فى العصر الجاهلى لسبب بسيط ، وهو كثرة مَنْ هاجروا منها شرقًا وغربًا . على أن ضربًا طريفًا من الغزل شاع فيها، ولم يكن مألوفًا من قبل ، وهو غزل عُذْرِىّ عفيف. وقد اشتهرت به قبيلة عُذْرة ، وكلنا نحفظ اسم جَمِيلِ بُثَيْنَةَ العُذْرى ، كما اشتهرت به بعض القبائل النجدية الأخرى ، فظهر فيها مثل قَيْس بن ذَرِيح ،وأيضًا ظهرت فيها أسماء أشبه ما تكون بالرمز مثل مجنون ليلى العامرى ، وهو — فيما نظن — شخصية أسطورية .

على كل حال ظهر هذا الغزل العُذرى، وشاع فى نجد وبوادى الحجاز فى أثناء عصر بنى أميّة ، وهو غزل ينمّ عن نفس صافية، صفّاها الإسلام ، وأحال الحب فيها إلى براءة وطهارة ، فقد سما بالنفوس ، وكان لهذا السمو أثره فى هذا الغزل العذرى الذى يرتفع فى بعض جوانبه عن المادة والحس .

٣

العراق

كان جريان دجلة والفرات فى العراق وما عُرف به من خصب أرضه سببًا فى قيام حضارات على رافديه كحضارة بابل وآشور ، وقد سكنه منذ أقدم الأزمنة عناصر مختلفة منها السامى كالأكديين ، ومنها غير السامى كالسومريين . وكل من يرجع إلى تاريخ العراق قبل الإسلام يلاحظ كثرة الغارات والهجرات إليه من الغرب تارة ومن الشرق تارة ثانية ، وطبيعى أن تكثر الغارات عليه لما يُطوّقه من صحارٍ مجدبة وجبال قاحلة كجبال طوروس التى تقع فى شماليّه ، ولذلك كثر وفود القبائل عليه غازية ناهبة .

ولما علا نَجْمُ الفرس ونشب الصراع بينهم وبين الرومان كان كل منهما تمتدُّ عينه إلى ما بيد الآخر ، فالرومان يريدون أن يستولوا على الرافدين وما يكوّنانه من الهلال الخصيب ، والفرس يريدون أن يستولوا على مستعمرتى الروم : الشام ومصر . ورأى كل منهما أن يقيم دولة من العرب تكون درعًا له أمام جَشَع الآخر ، فكوّن الرومان دولة الأنباط وتدمر .

وفى العهد الساسانى قبل الإسلام وبعد انقسام الدولة الرومانية إلى غربية وشرقية أو إلى روما وبيزنطة رأينا كلاً من الطرفين يحاول بكل ما وسع من قوة أن يتألف جماعة من العرب يقيم منها دولة ، فكوّن الروم أو كونت بيزنطة إمارة الغساسنة فى الشام على حدود سوريا ، بينما كوّن الساسانيون إمارة الحيرة فى العراق ، واعتبروا حاكمها العربى أميرًا من أمرائهم ، وكانوا يختارونه عادة من قبيلة لخم اليمنية .

ووصلت الحيرة إلى الذروة فى القرن السادس الميلادى ، فإن الدولة الحميرية ضعفت ضعفًا شديدًا ، فتحوّل عرب الجنوب كما تحول كثير من قبائل نجد الوسطى وشرقى الجزيرة إلى الحيرة ، فكان لها عليهم شبه سيادة ، ولعل ذلك هو الذى جعل الفرس يستولون على اليمن حقبة من الدهر .

ونستطيع أن نلاحظ هذا التفوق الذى وصلت إليه الحيرة إذا عرفنا أن المنذر الثالث الذى كان يعاصر جوستنيان صاحب بيزنطة ، اضطرّ الرومان حين عقدوا الصلح بينهم وبين الفرس سنة ٥٣٢ م أن يدفعوا له قدرًا من المال ، مثله فى ذلك مثل ملك الفرس[١]. ودار الزمن دورات وولى الحيرة النعمان بن المنذر الخامس صاحب النابغة الذبيانى ، وساءت العلاقات بينه وبين الفرس فحبسوه[٢] حتى توفى سنة ٦٠٢ م . وبهذه السنة انتهى حكم الأسرة اللخمية للحيرة ، وولّى الفرس عليها إياسًا الطائى ، وغضبت قبيلة بكر للخميين ، واتجهت جنوبًا إلى البحرين ، حيث ظلت تناوئ الفرس إلى أن جاء الإسلام .

ومن غير شك سقطت إلى عرب الحيرة فى العصر الجاهلى عناصر حضارية كثيرة بعضها عن طريق أصدقائهم من الفرس ، وبعضها عن طريق أعدائهم من البيزنطيين . فكان منهم من يعرف اللغة الفارسية مثل عدىّ بن زيد ، وكان من تراجمة أبْرَويز ملك الفرس ، وكان أبوه زيد شاعرًا خطيبًا وقارئًا كتَابَ العرب والفرس[٣]. وعدىّ وأبوه زيد إنما هما رمزان لهذه الصلة الحضارية بين أهل الحيرة وجيرانهم الفارسيين .

وكان اشتراك اللخميين فى الحروب مع بيزنطة سببًا فى أن تقتبس الحيرة كثيرًا من الأفكار والعناصر الرومانية الإغريقية ، إذ كان ينزل بها بعض الأسرى من البيزنطيين ، كما تدل على ذلك المصادر اليونانية واللاتينية[٤] ، ويذكر لامنس أنه كان بها بيزنطى يُدْعَى ابن تيوفيل الطبيب[٥]. ويُروَى أن النعمان الأول استخدم فى بناء حصونه بعض البنائين من الإغريق[٦] .

وهذه النصوص تشير إشارة قاطعة إلى تأثيرات رومانية إغريقية وصلت إلى الحيرة قبل الإسلام . على أن هناك جانبًا مهمًّا جدًّا لم نتحدث عنه حتى الآن ، وكان

---

(١) انظر أوليرى ص ١٥٩ .
(٢) أغانى (طبع دار الكتب) ٢/١٢٢ – ١٢٨ وانظر المسعودى ٣/٢٠٥ وما بعدها .
(٣) تاريخ ابن خلدون ٢/٢٦٦ .
(٤) أوليرى ص ١٥٩ .
(٥) كتاب مكة للامنس ص ٣٤٥ وانظر الأغانى (طبع الساسى) ١٤/٩١ وما بعدها حيث يقول أبو الفرج : إنه كان من تجار الشام وكان حريفاً للنعمان يبايعه وكان أديباً حسن الحديث والندام .
(٦) أوليرى ص ١٥٨ .

أعمق فى الحيرة من كل ما سبق، وهو جانب المسيحية وما كان من تنصُّر أهل الحيرة. وحقًّا تأخرت الهيئة الحاكمة فى التنصُّر إلا أننا نجد هندًا أم عمرو بن المنذر بن ماء السماء تبنى ديرًا [١] فى أواسط القرن السادس ، ويقال إن النعمان بن المنذر دخل فى المسيحية [٢] .

ولا نصل إلى الإسلام حتى تصبح الحيرة مسيحية ، وكانت تتبع الكنيسة النسطورية التى سيطر عليها السريان فى العراق والجزيرة . وصلة السريان وكنيستهم النسطورية بالثقافة الإغريقية مقررة معروفة [٣]، فقد أنشأوا فى نَصيبين وغيرها مدارس لاهوتية كانت تقتبس عن الأكاديميات الفلسفية، وكانت تحاول أن توفق بين اللاهوت المسيحى والفلسفة اليونانية .

ولم تكن المسألة مسألة صبغة إغريقية عَمَّت فى الكنيسة النسطورية ، بل كانت أكثر من ذلك، فإن السريان انطلقوا يترجمون كثيرًا من المؤلفات الإغريقية، وقد عرض دى بور لما ترجموه وقال إنهم أحلوا فى الإلهيات عناصر مسيحية محل ما هو وثنى ، فبطرس وبولس ويوحنا يتراءون أحيانًا بدل سقراط وأفلاطون وأرسطو ، وحلّ الإله الواحد محل القدَر والآلهة ، ويقول: إنهم ترجموا الرياضيات والطبيعيات والطب ومجموعات من الحِكم الخلقية والتهذيبية ، وعُنوا أشد العناية بالفلسفة الفيثاغورية الأفلاطونية ومنطق أرسطو [٤].

وكان هؤلاء السريان ينتشرون فى حوض دجلة الأعلى وفى الجنوب حول الحيرة وفى الحيرة نفسها . فإذا قلنا بعد ذلك إن العرب المقيمين فى شرقىّ الجزيرة قبل الإسلام وقعوا تحت تأثيرات فارسية لمجاورتهم لفارس، وليس ذلك فحسب ، بل لقد وقعوا تحت تأثيرات إغريقية بواسطة هؤلاء السريان من النساطرة الذين نشروا المسيحية فيهم لم نكن مبالغين ولا مغالين ، فقد دخلت المسيحية فى بكر وتغلب كما دخلت فى الحيرة ، وإذا كان بين عرب الحيرة مَن عرفوا اللسان الفارسى مثل عدى وأبيه زيد فأكبر الظن أن كثيرًا منهم عرفوا اللسان السريانى . ونفذوا منه

---

(١) انظر معجم البلدان لياقوت فى اسم دير هند الصغرى ودير هند الكبرى والأغانى (طبع دار الكتب) ٢/١٣١ .

(٢) أغانى ٢/٩٦ .

(٣) أوليرى ص ١٣١ وما بعدها .

(٤) تاريخ الفلسفة فى الإسلام لدى بور (طبع لجنة التاليف والترجمة والنشر) ص ٢٠ .

إلى تمثل كثير من الثقافة الإغريقية .

ومعنى كل ذلك أن عرب العراق خضعوا قبل الإسلام لتأثيرات فارسية وأخرى رومانية إغريقية ، فلما جاء الإسلام وخرجت قبائل كثيرة من نجد إلى العراق خضعوا لنفس التأثيرات ، بل إن التأثيرات كانت أعنف وأحدّ ، فقد انتقل الفرس بحضارتهم إلى الإسلام كما انتقل كثير من نصارى العراق إلى الإسلام أيضًا. وحلّت البصرة والكوفة محل الحيرة ، واحتفظتا بكل التراث الثقافى الفارسى والرومانى الإغريقى الذى كان منبثًّا هناك . ومن المحقق أن حركة عقلية كبيرة انبثقت فى الكوفة والبصرة فى أثناء عصر بنى أمية، وكان العرب هم الذين أشعلوا جذوتها، فقد أخذوا يقبلون على دراسات القرآن الكريم وتعاليم الإسلام الحنيف ، وأخذت تتكون مدارس مختلفة تُعْنَى بالتفسير والفقه ورواية الحديث النبوى، كما تكونت مدرسة كلامية تبحث فى مسائل القدر ، وكلنا نعرف المدرسة العقلية التى كان من أهم دعائمها الحسن البصرى وتلميذه واصل بن عطاء مؤسس مذهب الاعتزال ، وهى المدرسة التى أُسست بالبصرة والتى كانت تقول بحرية الإرادة .

وكل ذلك أتاح للعرب هناك نشاطًا عقليًّا جمًّا ، فهم يثيرون المسائل فى الدين ، ويجيبهم عليها جِلّة من الفقهاء ، وهم يبحثون فى الإيمان وفى القضاء والقدر ، ويجيبهم عليها المتكلمون الورعون، من أمثال الحسن البصرى، الذين وقفوا أنفسهم على وعظ المسلمين وإرشادهم وتوضيح ما يغمض عليهم مستندين إلى آى الذكر الحكيم ونصوص الحديث الشريف .

على أنه ينبغى أن نضم إلى إقليم العراق فى هذا العصر الأموى إقليم فارس وما كان به من تأثيرات رومانية إغريقية عن طريق البيزنطيين الذين كانوا ينزلون هناك إما مأسورين أو فارّين من الدولة البيزنطية حين اضطهدت من لا يقول بعقيدتها المسيحية فى طبيعة المسيح . ومعروف أن كسرى أنوشروان (٥٣١ -- ٥٧٩م) أسس فى جُنْدَيْسابور معهدًا للدراسات الفلسفية والطبية ، وقام على هذا المعهد أساتذة من المسيحيين السريان يعاونهم بعض اليونان .

ونحن إنما نضم هذا الإقليم إلى العراق لأنه كان مضمومًا فى هذا العصر الأموى فعلاً إليه ؛ إذ كان يتبعه فى السياسة ، فكان والى العراق هو الذى يُديره ، وهو

الذى يولّى عليه من يشاء من موظّفيه . وكذلك الشأن فى إقليم خراسان وما فُتِحَ من الهند ، فالعراق كان يضم تحت جناحيه شرقىّ الدولة العربية كلها .

ومهما يكن فإن العراق أهدى هو وما وراءه من فارس إلى العرب كل ما عرف الفرس من حضارة ، وكل ما سقط فيه أو فى فارس من تأثيرات بيزنطية . وقد اتسعت هذه التأثيرات فى العصر الأموى ، وأخذت تدفع العرب دفعًا أن يؤسّسوا — على مناهج صحيحة — دراساتهم المختلفة .

وإذا كان العراق أهدى إلى العرب كل ما احتفظ به من تراث ثقافى فارسى أو رومانى إغريقى ، فإنه أهدى إليهم أيضًا منافسته القديمة لعرب الشام الذين كانوا يحاربون دائمًا فى صفوف بيزنطة ، بينما كان يحارب هو فى صفوف الدولة الساسانية. فلما جاء الإسلام أسدل الستار مؤقتًا على هذه المنافسة ، وشُغِل اللخميون والغساسنة جميعًا بالفتوح ، وخُيِّل إلى الناس أن نيران هذه المنافسة استحالت رمادًا ، ولكن لم تكد تظهر أول فتنة فى الإسلام حتى تبيَّن أنه لا يزال تحت الرماد وميضُ جَمْرٍ ، فاشتبكت الفئتان فى سلسلة حروب ، واستطاعت الشام يمثّلها معاوية أن تنتصر على العراق التى كان يمثلها على . وصوَّر شاعران فى الإقليمين المتنافسين تصويرًا واضحًا هذه النزعة ، فقال شاعر الشام :

أرى الشامَ تكره مُلْكَ العراقِ ... وأهلُ العـــراقِ لهم كارهونا
وقالوا علىٌّ إمـــامٌ لنـــا ... فقلنا رضينا ابنَ هندٍ رضينا

وقال شاعر العراق :

أتاكمْ علىٌّ بأهل العراقِ ... وأهل الحجاز فما تَصْنَعُونا
فإن يكره القومُ مُلْكَ العراقِ ... فقِدْمًا رضينا الذى تكرهونا[1]

ومن هنا ظهر التنافس شديدًا طوال عصر بنى أمية بين أهل العراق ومن يتبعهم من فارس وبين أهل الشام . فكان الأولون دائمًا فى اضطراب سياسى مستمر ، إذ كانوا معارضين للأمويين أصحاب أهل الشام ، وكانوا دائمًا يطيرون

(١) الأخبار الطوال للدينورى (طبع ليدن) ص ١٧٠

مع أول ناعق للثورة عليهم ، طاروا أو ثاروا مع الحسين بن على ، أو على الأقل حاولوا ، وثاروا مع المختار الثَّقَفى ، وثاروا مع مُصْعَب بن الزبير ، وثاروا مع عبد الرحمن بن الأشعث ، وثاروا مع يزيد بن المهلَّب. فتاريخ العراق فى العصر الأموى ثورات متعاقبة لسبب طبيعىّ ، وهى أنه كان يُكِنّ خصومة حقيقية للأمويين وأنصارهم من أهل الشام .

وعَبَّر العراق عن هذه الخصومة فى حزبين كبيرين هما حزبا الخوارج والشيعة ، وملأ كل من الحزبين صفحات الأدب العربى فى هذا العصر بخطبه وشعره ، بحيث يستطيع الباحث أن يؤلف دراسة ممتعة لشعر كل من الطائفتين. وهو شعر كان يدور فى كثير من جوانبه على الدعوة للانتقاض على الأمويين وبَثّ هذه الخصومة العنيفة التى تُسْتَخدم فيها السيوف وتُسْفَك الدماء ، يَسْفكها الخوارج دائمًا ، ويسفكها الشيعة من حين إلى حين .

وتصادف أن أكثر عرب العراق كانوا من العدنانيين ، بينما كان أكثر عرب الشام من القحطانيين ، فاتخذ الصراع بين الإقليمين شكل عصبيات قَبَلية بين الفرعين العربيين الكبيرين . ولم تقف هذه العصبيات عند القحطانيين والعدنانيين فقد ذهبت كل قبيلة بل كل عشيرة تجترّ تاريخها فى الجاهلية وأيامها وحروبها ، فاندلعت نيران خصومة شديدة بين القحطانيين والعدنانيين من جهة ، وبين شُعَبهم وأحيائهم من جهة ثانية .

ولعل من طريف ما يلاحظ فى هذا الصدد أن كلا من البصرة والكوفة خُطِّط تخطيطًا قبَليًّا ، فكل قبيلة لها خِطَّتها ، ففى البصرة مثلاً لكل من تَميم والأزْد وبَكْر وعبد القَيْس خِطَّتها التى تنزل فيها ، وكانت الكوفة مقسمة إلى خِطَط مختلفة بين القحطانيين والعدنانيين [1] ، وكان القحطانيون اثنى عشر ألفًا ، بينما كان العدنانيون ثمانية آلاف [2] .

---

(١) انظر خطط الكوفة وشرح خريطتها لماسينيون ترجمة المصعبى (طبع مطبعة العرفان — صيدا) حيث يوضح ماسينيون ص ١٠ منازل كل قبيلة قحطانية أو عدنانية ، وقد ذكر أن القبائل حشدت فى سبع خطط ، وأوضح خطة كل قبيلة قبل نزول على بن أبى طالب الكوفة وبعد نزوله . ومن طريف ما ذكره أن البصرة سبقت الكوفة فى التحضر ، فقد بنيت منازلها وشيدت مساكنها قبل الكوفة بزمن بعيد .

(٢) فتوح البلدان للبلاذرى ص ٢٧٦ .

وساعد هذا التخطيط نفسه على احتدام العصبيات بين القبائل ، وكانت هذه العصبيات أو الخصومات القبلية موضوعًا خطيرًا ، يُدْلى كل شاعر فيه بدَلْوه ، ويحاول أن يأتى فيه بكل ما يستطيع من ثناء على قبيلته أو أزهار فَخْرٍ يتوَّجها بها ، وفى الوقت ذاته يحاول أن يغضَّ من خصومها بل يحاول أن يرميهم بكل مايستطيع من حجارة هجاء وقَذْف . ويخيَّل إلى الإنسان أنه لم يعد من الممكن دَفْعُ هذا السيل ، فكل قبيلة أصبح لها شاعرها الذى يتغنى بمآثرها فى الجاهلية وما كان لها من أيام وحروب وأمجاد مختلفة ، وفى الوقت نفسه يصبُّ جام غضبه على القبائل المعادية ، ويحاول أن يطعنها فى صميم شرفها وحَسَبها الطعنة القاضية .

وأصبحت البصرة والكوفة مَسْرحًا لهذه العصبيات أو قل لهذه السهام التى كانت تَريشها القبائل المختلفة هناك ، وتصوّبها كل منها إلى صَدْر جارتها . وشاركتهم فى ذلك القبائل المجاورة كقبيلة تَغْلِب فى الجزيرة . وهكذا أخذت كل قبيلة تزحف على جاراتها بشعرائها ومآثرها .

ومن هنا نستطيع أن نفهم كيف أن بيئة العراق أهَّلت الشعرَ العربىَّ فى هذا العصر لأن يخوض فى موضوعين كبيرين . أما أولهما فهذه الخصومة السياسية التى اشتعلت بين الخوارج والشيعة وبين الأمويين ، وأما ثانيهما فهذه الخصومة القبلية التى التهبت بين العدنانيين والقحطانيين ، ثم بين أغصانهم وشُعَبِهم المختلفة . فالشعر الذى وُجد فى العراق لعصر بنى أمية إما شعر سياسى ، وهو الذى كان يُقَال فى الخصومة الأولى ، وإما شعر قَبَلى وهو الذى كان يقال فى الخصومة الثانية .

وتأثرت موضوعات الشعر المختلفة فى العراق بهذين الموضوعين الكبيرين ، وظهر التحامهما خاصة فى مديح بنى أمية على نحو ما نجد عند جَرير والْفَرَزْدَق والأَخْطَل ، فقصيدة المديح عندهم تتأثر بالخصومات السياسية ، كما تتأثر بالخصومات القبلية .

على أننا إذا كنا لاحظنا على شعراء الحجاز تأثرهم بالحضارة المادية وما اندمج فيها من موسيقى وغناء ، فإننا نلاحظ على شعراء العراق أن التأثيرات الحضارية المعنوية فيهم كانت قوية . فهذا التراث الفارسى والرومانى الإغريقى الذى كان

هناك قبل الإسلام وجد سبيله إلى الشعراء مما سنعرض له فى موضع آخر

وليس هذا كل ما نلاحظه على هذه البيئة ، فنحن نلاحظ عليها أيضًا كثرة الشعر والشعراء ، بحيث تكاد تستقل بأكثر ما جاءنا من شعر عن عصر بنى أميه . وأكبر الظن أن ذلك يرجع إلى أن عرب العراق كان أكثرهم من العدنانيين أصحاب العربية الشمالية ، فقد اندفعت القبائل العدنانية من قَيْس ومُضَر إلى العراق ، وهى القبائل التى تتميز بالشعر الكثير . ويكفى أن يعود الإنسان إلى ما تركت تَميم فى هذا العصر من شعر ليرى أن العراق كان حقًّا البيئة الأولى للشعر والشعراء فى زمن بنى أمية .

وأخرى نلاحظها على هذه البيئة ، وهى أنه إذا كان وُجِدَ فى العصر الجاهلى من عرَف اللسان الفارسى من عرب العراق كعدىّ وأبيه زيد ، فإن الذين عرفوا هذا اللسان فى العصر الأموى كانوا أكثر عددًا ، خاصة أن الفارسية كانت شائعة فى البصرة والكوفة[1] ، وتذكر كتب الأدب شاعرًا بصريًّا ، هو يزيد بن مُفَرِّغ الحميرى ، كان يعرف الفارسية ، وكان ينظم فيها بعض شعره[2] . وفى الوقت نفسه نجد هؤلاء الموالى الكثيرين الذين كان يطفح بهم العراق يشاركون فى الشعر العربى ، فيظهر من بينهم بعض شعراء يحسنون صَنْع هذا الشعر ، ويحاولون أن يتفوقوا فيه ، مثل زياد الأعجم مولى عبد القَيْس[3] . وكل هذا دليل فَوْرَة الشعر الشديدة فى العراق ، وكثرة ينابيعه التى شاركت فيه .

---

(١) انظر فى ذلك كتاب (العربية—دراسات فى اللغة واللهجات والأساليب) ليوهان فك ترجمة الدكتور النجار (طبع جماعة الأزهر للنشر والتأليف) ص ١٤ وما بعدها ، حيث يذهب المؤلف إلى أن سيل العناصر الإيرانية فى القرن الأول كان من القوة بحيث كانت اللغة الفارسية تحتل المكان الأول فى البصرة والكوفة ، ودعم رأيه بنصوص مهمة . وأفرد بيڤان فى فهارس نقائض جرير والفرزدق التى نشرها بابا للألفاظ الفارسية التى استخدماها . انظر الجزء الثالث الخاص بالفهارس ص ٦١٢ .

(٢) البيان والتبيين ١/١٤٣ .

(٣) أغانى (طبعة الساسى) ١٤/٩٨ .

٤

الشام

يشتهر هذا الإقليم بكثرة مياهه ، واعتدال مناخه ، والتفاف غاباته وأشجاره من زيتون وغير زيتون ، وكان خصبه ووقوعه على حافة البحر المتوسط الشرقية سببًا فى أن تقوم به وتتعاقب عليه حضارات مختلفة ، فقديمًا كان فيه الفينيقيون والعبريون ، وقديمًا استعمره المصريون واليونان والرومان . وأهَّله ذلك دائمًا للاتصال بالأمم القديمة وتمثُّلِ ما عندها من مدنيات .

وكان قبل الإسلام تابعًا لبيزنطة ، وكان الفرس يفكرون دائمًا فى الاستيلاء عليه ، فرأت بيزنطة ، كما رأت روما من قبل ، أن تستعين بالعرب المجاورين له ، فكوَّنت الإمارة المعروفة باسم إمارة الغساسنة من آل جَفْنَة .

والمصادر العربية التى تحت أيدينا عن تاريخ هذه الإمارة غامضة ، ولعل مرجع ذلك أن وثائقها التاريخية كانت بيزنطية بخلاف الحيرة ، فقد كانت وثائقها فارسية أو سُرْيانية ، وكان كثير ممن أسلم فى العراق يعرف الفارسية والسريانية ، فاتصل العرب بتاريخ الحيرة مباشرة . أما تاريخ الغساسنة فلم يستطيعوا الاتصال به لعدم معرفتهم لليونانية ، ومن هنا بَدَا ما كتبوه عن هذا التاريخ مضطربًا مشوَّشًا ، وغامضًا مبهمًا ، فبينما تعد بعض المصادر ملوك الغساسنة عشرة إذ تجعلها أخرى سبعة وثلاثين[1] ، وبينما يجعل حمزة الأصفهانى حكم الحارث بن جَبَلَة عشر سنين إذ المصادر اليونانية تجعله أربعين . ثم إن حمزة يذكر بعد الحارث عدة أمراء حكموا ، على زعمه ، نحو خمسة قرون مع أنه من المحقق أن خلفاء الحارث لم يملكوا بعده أكثر من خمس وستين سنة[2] .

ويشير نولدكه إلى أن مؤرخى العرب المختلفين لم تكن لهم معرفة واضحة بغير

---

(١) انظر أمراء غسان لنولدكه (طبع بيروت) ص ٥٧ وما بعدها .

(٢) أمراء غسان ص ٥ .

أفراد قلائل من بنى جفنة ، ويذكر أن الطبرى ومن نقلوا عنه كانوا يجهلون هذه الأسرة جهلاً يكاد يكون تامًّا[١] .

والتاريخ الحقيقى لآل جفنة إنما يبدأ بالحارث بن جَبَلة فهو أول أمير غسانى يثق المؤرخون بإمارته ، إذ كان معاصرًا لجوستنيان ، وقد جعله أميرًا على كل القبائل العربية الشمالية سنة ٥٢٩م بعد حادثة مهمة هى انتصاره على المنذر أمير الحيرة . ولم يكتف جوستنيان بذلك ، بل منحه لقب « فيلارك وبطريق » . وكانت حياة الحارث سلسلة حروب بينه وبين المنذر ، وقد قضى عليه عام ٥٥٤ م ، وزار بيزنطة عام ٥٦٣ م وتوفى عام ٥٧٠ م .

وعَيَّنت بيزنطة من بعده ابنه المنذر ، وفى عهده هاجم عرب الحيرة الحدود السورية ، فانتصر عليهم فى وقعة « عَيْن أباغ » . وفى سنة ٥٨٠ م زار بيزنطة مع ولدين له فاستُقبل استقبالاً عظيمًا ، وهناك ألبسوه التاج ، واعترفوا به ملكًا أو أميرًا على العرب . غير أنهم لم يلبثوا أن اتهموه وقبضوا عليه ، فثار عليهم أولاده بقيادة النعمان ، ووقع هو الآخر فى قبضة أيديهم . ومن حينئذ ضعف شأن الغساسنة ، وكادوا يُعَدُّونَ منتهين ، ولذلك لا نسمع بهم فى الحروب البيزنطية الفارسية التى شبَّت عام ٦١٣ م ، وإن كنا نجد مؤرخى العرب يذكرون لهم أميراً فى عصر الفتوح هو جَبَلة[٢] بن الأيْهَم الذى أسلم ، ثم ارتد ، وهرب إلى قيصر ، وظل عنده حتى مات .

وإذا كان عرب العراق اللخميون عُرِفوا بمدينة اشتهرت هى الحيرة فإن عرب الشام الغساسنة لم يعرفوا بمدينة معينة . والمؤرخون والشعراء يذكرون لهم عدة مواضع ، كانوا ينزلون فيها ، إذ كانت إمارتهم تمتد من شمال بادية الشام من بُصْرَى إلى فلسطين ، فكانت تشمل مقاطعات الجَوْلان وحَوْران والبَلْقاء . ويتردد على ألسنة الشعراء ذكر جِلِّق ، وكانت منازل بالقرب من دمشق فى موضع على نهر بَرَدَى الذى يشتهر ببساتينه . وأشهرُ من جِلِّق الجابِيَةُ وكانت على مسافة يوم إلى الجنوب الشرقى من دمشق .

---

(١) أمراء غسان ص ٦٠ .

(٢) أمراء غسان ص ٤٩ .

ويظهر أن الغساسنة لم يحيلوا هاتين القريتين إلى مدينتين حقًّا ، فكانتا خليطًا من الخيام والمبانى البسيطة ، وإن كان حمزة الأصفهانى يُشيد دائمًا بما بناه الغساسنة ، إلا أن نولدكه يتشكك فى كل ما يزعمه من ذلك[١] . وربما كان للعلاقات السيئة بين بيزنطة والغساسنة فى أواخر العصر الجاهلى أثر فى أنهم لم يستقروا تمامًا ، إذ جعلوا أنفسهم دائمًا على أهبة الفرار داخل الصحراء .

على أن هذا كله ليس معناه انقطاع الصلة بين عرب الشام والعناصر الحضارية البيزنطية ، فقد دخل هؤلاء العرب فى المسيحية وأكثروا من بنائهم للأديرة . والذى لا شك فيه أن تأثرهم بالعناصر الرومانية الإغريقية كان أقوى من تأثر عرب العراق لأنهم كانوا فى نفس المجال البيزنطى . وقد اختاروا المذهب اليعقوبى ، فإذا كان النساطرة هم الذين أثروا فى عرب العراق فإن اليعقوبيين هم الذين أثروا فى عرب الشام . ويذهب أوليرى إلى أن اليعاقبة يتفوّقون على النساطرة فى ترجمة الفلسفة الأرسطاطالية ، وشرحها ، والتعليق عليها[٢] . ومعنى ذلك أن ما تسرَّب إليهم من الفلسفة اليونانية لا يقل ، إن لم يزد ، عما تسرب إلى النساطرة .

ونحن نعرف أن الشام أو أكثرها تحول إلى الإسلام عربًا وغير عرب ، وكانت الشام كلها مسيحية ، وقد وضعت الكنيسة لاهوتها على أصول إغريقية رومانية . وإذا كنا لاحظنا عند النساطرة إنشاء المدارس اللاهوتية على سُنَن مقتبسة من الأكاديميات الفلسفية كمدرسة نَصيبين فإننا نلاحظ ذلك أيضًا فى الشام حيث أُسِّسَت منذ القرن الثالث الميلادى مدرسة فى قَيْسَارِيَّة وأخرى فى أَنْطَاكِيَة[٣] . ولما فُتِح باب الجدال فى القرن الخامس الميلادى فى طبيعة المسيح استعان المتجادلون بالفلسفة اليونانية ومنطقها ، حتى يدعموا آراءهم بالحجج والبراهين .

وإذن فالشام قبل الإسلام كانت غارقة فى تأثيرات رومانية بيزنطية ، فلما فتحها العرب واستقرُّوا فيها تحولت إليهم هذه الثروات العقلية . يقول فون كريمر : « وبهذا الطريق وحده يجب أن يُفَسَّر التشابه البيِّن الذى نلاحظه فى مظاهر

---

(١) أمراء غسان ص ٥٣ .
(٢) أوليرى ص ١٤١ .
(٣) أوليرى ص ١٢٨ .

المسيحية البيزنطية الأساسية والتعاليم الإسلامية . وإن البحث فى كنه الله وصفاته هو أول شيء له المقام الأول فى كتابات كل من آباء الكنيسة الإغريق وأقدم علماء الدين عند العرب ، فأقدم علماء المسلمين يَشْغَلون أنفسهم إلى حد كبير بالأبحاث التى تدور حول القضاء والقدر والإرادة »[١] .

ومعنى ذلك أن الشام ساعدت مساعدة فعالة فى تكوين العقلية الإسلامية لهذا العصر الأموى ، ومن أهم الذين ناقشوهم فى هذا الجانب وأعظمهم يوحنّا الدمشقى الذى كان يكتب اليونانية ، وكان يلقّب لفصاحته بدفّاق الذهب ، وكان فى شبابه نديمًا ليزيد بن معاوية ، وولى إدارة الشئون المالية فى دمشق لغير خليفة ، وله مؤلفات مختلفة ، منها محاورةٌ مع مسلم فى ألوهية المسيح ونظرية حرية الإدارة ، وكتابٌ لأرشاد النصارى فى جدالهم مع المسلمين . ويرجّح أنه ناقش كثيرين منهم فى القدر ، وأن مناقشاته تلك كانت تدور أحيانًا فى حَضْرة الخليفة . ولا شك أنه نقل إلى العرب فى أثناء ذلك كثيرًا من النزعات النصرانية والأفكار الإغريقية[٢] .

وكل الدلائل تدل على أن العرب فى الشام كما أقبلوا على يوحنا أقبلوا على كل ما كان هناك من عناصر عقلية ، ولم يجدوا حرجًا فى ذلك ، بل لقد دفعوهم دفعًا الى أن يترجموا لهم بعض المؤلفات اليونانية . وخالد بن يزيد بن معاوية خَيْرُ من يصور لنا ذلك ، فقد تتلمذ لراهب يسمى مَرْيانُس ، وأخذ عنه صنعة الطب والكيمياء[٣] ، ويقول ابن النديم عنه إنه : « عُنِيَ بإخراج كتب القدماء فى الصنعة . . . وهو أول من تُرْجِم له كتب الطب والنجوم وكتب الكيمياء . . . وقد رأيت من كتبه كتابَ الحرارات ، وكتاب الصحيفة الكبير ، وكتاب الصحيفة الصغير ، وكتاب وصيته إلى ابنه فى الصنعة[٤] » .

ولا شك فى أن خالدًا إنما هو رمز للحركة الكبيرة التى قامت فى الشام وما شاع فيها من تبادل هذه السِّلَع العقلية : يعطى العربُ شعرهم وقرآنهم وحديث رسولهم ،

---

(١) الحضارة الإسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الأجنبية (نشر دار الفكر العربى) ص ٦٦ .

(٢) انظر تاريخ العرب (مطول) لفيليب حتى (نشر دار الكشاف) ٢/٣١٤ .

(٣) وفيات الأعيان لابن خلكان (طبع ديسلان) ١/٢٤٦ .

(٤) فهرست ابن النديم (طبع ليبسك) ص ٣٥٤ .

ويأخذون الفلسفة اليونانية والأفكار المسيحية، ويتأثرون في أثناء ذلك بما كان شائعًا هناك من تشريع بيزنطي ومن نُظُم إدارية في الدولة ونظم حربية .

فالتأثير الروماني الإغريقي في الشام كان عنيفًا ، وكان من آثاره هذا التنظيم الحربي الذي نجده في رسالة عبد الحميد الكاتب إلى ولي عهد الخليفة الأموي الأخير : مروان بن محمد . وكان سالم مولى هشام وصاحب ديوانه يعرف اليونانية ، ويترجم منها بعض رسائل لأرسطاطاليس[1]. وهذا كله يجعل الشام في مكان عَلِيٍّ من حيث وصْل العرب بالحضارة الرومانية الإغريقية ، وهو وَصْل بدأ منذ الجاهلية ، ولكنه اتسع في هذا العصر اتساعًا شديدًا .

وقد لاحظنا أن العرب الذين كانوا في الشام قديمًا كان أكثرهم إن لم يكن كلهم من القحطانية ، وكان لهذا تأثيره على هذه البيئة من حيث شاعريتها، فإن مَنْ يستعرض نصوص العصر الأموي لا يكاد يجد للشام نشاطًا يُذْكَر من حيث الشعر ،وأكبر الظن أن هذا يرجع إلى أن السكان هناك كان أكثرهم يمنيين ، اصطنعوا العربية الشمالية اصطناعًا، فلم تؤهلهم لقول الشعر ونظمه ، ولذلك لا نجد لهم شعراء مشهورين في هذا العصر سوى عديّ بن الرِّقاع العاملي .

وفرق بعيد جدًّا بين نشاط الشعر في العراق ونشاطه في بيئة الشام ، ففي العراق نستطيع أن نعد أسماء شعراء ممتازين بالعشرات ، فصحُف الشعر تُتْلَى في كل مكان ، أما في الشام فلا يكاد يظهر على المسرح شاعر ممتاز سوى عدي بن الرقاع ، ومع ذلك فهو لا يُعَدُّ شيئًا بالقياس إلى فحول العراق من مثل جرير والفرزدق والأخطل وذي الرُّمَّة والكُمَيْت وهلم جرا .

فبيئة الشام لم تكن بيئة شاعرة كما كانت بيئة العراق ، وأكثر ما كان يقال فيها من شعر كان يَفِد عليها من الخارج .واتخذ ذلك صورتين :الأولى أن يفد الشعراء بشعرهم على دمشق يُنشدونه الخلفاء، والثانية أن تَحْدُث في الشام حوادث تقتضي نَظْم الشعر كهذه الحوادث، أو قل كهذه الحروب ، التي نشبت بين القبائل القيسية حين هاجرت هناك وبين القبائل اليمنية في الشام . فقد اقترنت هذه

---

(١) الفهرست ص ١١٧ .

الحروب بشعر كثير . ولكن ينبغى أن نلاحظ أن أكثر هذا الشعر كان وافداً على الشام مع هذه القبائل القيسية مثل عامر وسُلَيم التى وفدت هناك من بوادى نجد والحجاز ، واستقرَّ كثير منها فى قِنَّسْرِين وفلسطين العليا . وسرعان ما تطورت الظروف وجاءت موقعة مَرْج راهِط ، واشتبكت الفئتان فى حروب دامية ، واشتبك شعراؤهما فى مفاخر ومثالب كثيرة .

ومع ذلك يمكن أن نعد هذا الشعر طارئًا ، لأنه أتى مع هذه القبائل القيسية . والحق أن الشام لا تقارَنُ بما كان فى العراق من نشاط أدبى ونشاط فى الشعر خاصة ، لهذا السبب الذى ذكرناه ، وهو أن كثرة أهلها كانوا يمنيين أو لم يكونوا يُحْسِنون لسان العربية الشمالية كما أحسنه أهلها ، فتأخروا عنهم فى نظم الشعر ولم يستطيعوا أن يجاروهم فيه .

على أن هناك نشاطًا فى الشعر حدث فى هذه البيئة ، ولكنه لم يحدث عن طريق هذه القبائل اليمنية ، إنما حدث عن طريق الأسرة المُضَرِيَّة هناك ، وهى الأسرة الحاكمة من بنى أمية ، فإن بعض أمراء هذه الأسرة انصرفوا إلى حياة اللهو والغناء التى سبق أن تحدثنا عنها فى الحجاز ، وكان كل شىء من حولهم يؤهلُهم لذلك ، فقد نَعِمُوا بحياة مترفة غاية الترف وعاشوا فى قصور باذخة ، وأحاطوا أنفسهم بكل ما يستطيعون من مظاهر الفخامة . ويخيَّل إلى الإنسان كأن الجو كله أصبح عِطْرًا خالصًا ، أو كأن البيئة أصبحت كلها حلية وزينة[1] .

وقد ذهب هؤلاء الأمراء والخلفاء يستقدمون مغنى الحجاز ومغنياته ، فأهلُّوا بذلك الشام لأن تنتقل إليه هذه الحركة الغنائية التى سبق أن وصفناها فى الحجاز ، وقد انتقل معها هذا الشعر الغنائى الذى كان ينظمه عمر بن أبى ربيعة والأحْوَص ومَن إليهما من الشعراء فى مكة والمدينة . وهناك أسماء خلفاء ثلاثة يتردد ذكرهم فى هذا المجال ، وهم : يزيد بن معاوية ، وابن أخته يزيد بن عبد الملك ، وابنه الوليد ، فإن هؤلاء الخلفاء طلبوا الغناء الحجازى ، وفَسحوا له فى مجالسهم ، وعقدوا للمغنين والمغنيات الحفلات المختلفة .

---

(١) مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامى لسيد أمير على (ترجمة رياض رأفت) ص١٦٨ وما بعدها .

وكان من آثار ذلك أن أخذت الشام تقلد الحجاز ، وتنقل عنه هذا الغناء الجديد وما ارتبط به من هذه النظرية التى سبق أن أشرنا إليها ، ولمعت حينئذ بعض أسماء ، أشهرها أبو كامل الغُزَيِّل مغنى الوليد بن يزيد .

وليس هذا كل ما يلاحظ على هذه الحركة ، فقد انتقل أيضًا هذا الفن الجديد من الغزل المطبوع بالطابع الغنائى التام . ونحن لا نصل إلى الوليد بن يزيد حتى نجده ينفذ من أثناء ذلك كله إلى أن يصبح مغنيًا يحسن الإيقاع والضرب على الأدوات الموسيقية ، بل تُنْقَلُ عنه أصوات تُؤْثَر فى بيئات المغنين . وليس هذا فحسب ، فقد كان شاعرًا غنائيًا بالمعنى الكامل فشعره كله مقطوعات حُبٍّ وخمر ، وشعره كله ألف من أجل الغناء . وسنعرض لذلك فى غير هذا الموضع .

ولعل فى هذا ما يدل على أن الشام لم تعرف الشعر فى هذا العصر الأموى إلا طارئًا ، إما على لسان هؤلاء الشعراء الوافدين الذين كانوا يمدحون الخلفاء فى دمشق ، وإما تحت تأثير ظروف طارئة كهذه الحروب التى شَبَّت نارها بين القيسية واليمنية منذ فتنة ابن الزبير ، أو على لسان هذه الأسرة القرشية المُضَرِيَّة من بنى أمية . وهذا كله واضح الدلالة على أن بيئة الشام كانت متخلفة فى هذا العصر ، من حيث الشعر ، عن بيئة العراق وبيئة الحجاز ، ومع ذلك فهناك بيئات إسلامية كانت أكثر تخلفًا ..

٥

بيئات أخرى

وهذه البيئات التى كان تخلفها أكثر من تخلف الشام هى : اليمن ، ومصر ، وبلاد المغرب ، والأندلس . أما اليمن فمعروف أنها كانت أكثر تحضرًا من الحجاز ونجد ، وقد قامت بها دُولٌ قديمة كسَبَأ ومَعين ، وأتت من بعدها الدولة الحميرية منذ القرن الثانى قبل الميلاد ، ومن اسم هذه الدولة تسمَّى اللغة الجنوبية باسم اللغة الحميرية ، وهى تخالف العربية الشمالية فى كثير من مفرداتها ووجوه اشتقاقها .

ومن أجل ذلك يكون من الطبيعى أن لا نجد فى هذه البيئة العربية الجنوبية نشاطًا أدبيًّا لا فى الشعر ولا فى النثر ، لسبب بسيط وهو أن أهلها لم يساهموا فى الشعر الأموى كما أنهم لم يساهموا سابقًا فى الشعر الجاهلى . فأهل اليمن ، الذين استمروا فيها ولم يهاجروا ، ظلوا يعيشون كما كانوا يعيشون فى الجاهلية ، أو ظلوا يُجْرون حياتهم على نحو ما كانوا يجرونها قديمًا ، وأيضًا فإنهم ظلوا يستخدمون غالبًا اللغة الحميرية كأسلافهم السابقين .

ولا ريب فى أن لغة قريش أو لغة القرآن الكريم أخذت تؤثر فيهم ، ولكنه كان تأثيرًا بطيئًا ، فلم تظهر آثاره سريعًا فى هذا العصر ، إنما ظهرت فى عصور متأخرة . ومن هنا كانت بيئة اليمن متخلفة فى الشعر فى أثناء هذا العصر الأموى ، فليس لها نشاط فيه ، إلا من هاجروا منها فى الفتح ، واختلطوا بعرب الشمال ، واستخدموا لغتهم فى التعبير عن خواطرهم . ولكن هؤلاء المهاجرين يُعَدُّون منفصلين عن بيئتهم ، فقد عاشوا فى بيئات أخرى . والذى نسجّله هنا أن بيئة اليمن نفسها لم تشارك مشاركة ذات قيمة فى الشعر فى أثناء عصر بنى أمية ، لأنه كان يقال فى لغة تُعَدُّ غريبة بالقياس إليها ، فطبيعى أن لا تَنْظم فيه أو على الأقل أن لا تبرع فيه براعةً من شأنها أن تُحدث لها فيه نشاطًا أدبيًّا يذكر .

وأما مصر التى وصفها هيرودوت بأنها هبة النيل ، فقد كانت أعْرَق من اليمن فى الحضارة ، وقد شاركت فى المدنية الإنسانية منذ بُنَاة الأهرام ، وعنها تلقّت الأمم القديمة من فينيقيين وبابليين ويونان . وكما أعطت أخذت ، فاتصلت بالحضارة اليونانية والرومانية ، وشاركت مدرسةُ الإسكندرية فى الفكر الإغريقى ، وطَوَّرت فلسفته إلى الأفلاطونية .

فلما فتح العرب مصر كانت الثقافة الإغريقية الرومانية منتشرة فيها ، وكانت اليونانية تُدْرَسُ فى الإسكندرية ، وكذلك كانت تدرس السريانية[1] . وهذا طبيعى لأن السريانية كانت لغة اللاهوت المسيحى وكانت مصر مسيحية ، فانتشرت بأديرتها ، ولقيت عنايةً من رهبانها .

---

(١) فتح العرب لمصر لبتلر (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٨٤ .

وكلُّ ما سبق أن قلناه عن اتصال المسيحية فى الشام والعراق بالثقافة الرومانية الإغريقية يُطَبَّق تطبيقًا على مصر ، بل لقد سبقت مصر الإقليمين السالفين بما أوجدت من الأفلاطونية الحديثة ، وانبرى علماء اللاهوت فيها يفيدون من الفلسفة اليونانية ، ويعلقون عليها ، ويشرحون ، كما انبرى معهم علماء الإسكندرية .

وظلت عناصر من هذه الثقافة فى البيئة المصرية وأثرت فى الأجيال التالية ، على الرغم من إغلاق مدرسة الإسكندرية ، فقد هجرها أساتذتها إلى أنطاكية فى عهد عمر بن عبد العزيز ، ولكن على كل حال ظلت آثارهم ، وظلت عناصر من هذه الثقافة القديمة منتشرة فى مصر بدليل ما عُرفت به فى العصور التالية من كثرة الأطباء .

ونحن نعرف أن كثيرًا من القبائل العربية هاجرت إلى مصر حين سمعت بخيراتها وثمارها ، ومع ذلك نلاحظ أن نشاطها الأدبى فى هذا العصر الأموى كان محدودًا جدًّا ، فإذا عرفنا أن أكثر القبائل العربية التى هاجرت إليها كانت يمنية أمكننا أن نعرف لماذا تخلَّفت فى الأدب والشعر لهذا العصر ، فإن القبائل اليمنية حتى التى تركت مواطنها قبل الإسلام إلى الشمال لا تنبغ فى الشعر العربى نبوغ القبائل الشمالية المضرية والقيسية .

والواقع أننا لا نجد فى مصر شعرًا يُذْكَر فى هذا العصر إلا شعر الشعراء الوافدين عليها ، فقد زارها طائفة غير قليلة من الشعراء ، حينما كان عبد العزيز بن مروان واليًا عليها من قبل أخيه عبد الملك ، إذ كان ممدَّحًا كثير النوال جزيل العطاء ، فكان الشعراء يفدون عليه لمدحه ، وممن وَفَدَ عليه كُثَيِّر ونُصَيْب وابن قيس الرُّقَيَّات وأيْمَن بن خُرَيْم وعبد الله بن الحجاج التَّغْلِبى وجَمِيل . ونجد فى (كتاب الولاة والقضاة) للكندى و (كتاب الأغانى) نصوصًا كثيرة لهؤلاء الشعراء فى مديح عبد العزيز .

فالشعر الذى ظهر فى هذه البيئة لم يكن من صُنْعها ، إنما كان وافدًا عليها مع هؤلاء الشعراء ، وهو ليس شعرًا مصريًّا يمكن أن يُنْسَبَ إليها . وإذا تصفحنا (كتاب الولاة والقضاة) للكندى ، وهو خير مرجع للشعر العربى فى مصر فى أثناء عصر الولاة ، لم نجد شاعرًا مصريًّا نابها فى هذا العصر . وحقًّا تمثَّل

الكندى ببعض أشعار لنَفَر من المصريين ، ولكنها أشعار ضعيفة ، ولا تعبر عن وجود نَبْع فياض بمصر . وربما كان خير من يذكرهم ابن أبى زَمْزَمة ، وكان معاصرًا لعبد العزيز بن مروان ، ولكنه على كل حال شاعر متوسط إن لم يكن ضعيفًا ، فأجنحته لا تكاد تنهض به فى أفق الشعر العربى العام لهذا العصر .

ومعنى ذلك أن مصر فى عصر بنى أمية ليس لها نشاط يُذْكَرُ فى الشعر العربى ، لأن العرب الذين حَلّوا فيها لم يكونوا ذوى استعداد تام لأن يتفوقوا فى هذا الشعر ، فقد كانوا يمنيين ، ولم يكونوا ينظمون من الشعر إلا البيتين والثلاثة أو القطع القصيرة ، على نحو ما نجد فى كتاب الولاة والقضاة . وأظن فى ذلك ما يدل دلالة واضحة على هذا الضعف والتخلف .

وإذا تركنا مصر وولّيْنا وجوهنا نحو بيئة المغرب وجدناها بيئة مترامية الأطراف إذ تمتد من مصر إلى المحيط الأطلسى بمحاذاة البحر المتوسط . وقد سكنها البربر منذ أقدم الأزمنة ، ونزل بها الفينيقيون فى قرطاجنة بالقرب من تونس ، ثم استولى عليها الرومان ، وحاولوا أن ينشروا بها لغتهم ، كما حاولوا أن ينشروا بها المسيحية ، ولكنهم لم يستطيعوا أن ينفذوا بذلك بعيدًا عن الساحل إلا فى مناطق قليلة .

وقد استولى العرب على المغرب من يد بيزنطة ، إذ كان تابعًا لها حينئذ ، وكانت فى شواطئه هذه العناصر الفينيقية والرومانية ، وأيضًا الإغريقية ، لأن العناصر الإغريقية ، كما هو معروف ، اختلطت بالعناصر الرومانية اختلاطًا واسعًا فى حوض البحر المتوسط كله .

ونحن نلاحظ هنا ما لاحظناه فى مصر من أن القبائل التى نزلت فى بلاد المغرب كان أكثرها من اليمن ، فلم تكن من هذه القبائل الشاعرة : قبائل عدنان الشمالية . وإذا كنا قد لاحظنا أن شعرًا طارئًا ظهر فى مصر على ألسنة هؤلاء الشعراء الذين زاروها لمديح عبد العزيز بن مروان ، فإننا نلاحظ هنا أنه حتى هذا الشعر الطارئ لم يوجد فى بلاد المغرب ، لأنه لم يوجد فيها الحاكم القوى كثير البذل والعطاء الذى يَجْذب إليه الشعراء من الحجاز ، أو نجد ، أو العراق .

فبلادُ المغرب فى عصر بنى أمية أكثر تخلفًا من مصر فى مجال الشعر والشعراء . وكذلك الشأن فى الأندلس ، على الرغم من الذخائر اللاتينية التى كانت

مبثوثة فيها قبل الفتح، وما اختلط وامتزج بهذه الذخائر من عناصر فينيقية ويونانية، فقد كان للفينيقيين واليونان مستعمرات بها قبل الغزو الرومانى واستيلاء روما عليها .

على كل حال كان فى بلاد الأندلس عناصر عقلية وحضارية بثّتها الحضارات التى مرت بها ، وكان أهلها مسيحيين، وكانوا متأثرين تمام التأثر بروما اللاتينية . غير أن هذه البلاد لم تُمْضِ فى عصر بنى أمية إلا فترة محدودة ، فعمليةُ المزج العقلى والحضارى بينهم وبين العرب لم تجد الفرصة للتكامل حينئذ . وإذا رجعنا إلى القبائل العربية التى نزلتها وجدناها من نفس القبائل التى نزلت فى مصر وبلاد المغرب ، فهى غالبًا قبائل يمنية . ومعنى ذلك أن الأندلس لم تكن نشيطة فى الشعر العربى لهذا العصر ، بل كانت متخلفة ، لأن العرب الذين نزلوها أنفسهم كانوا متخلفين من حيث الشعر والشعراء .

وأظن أننا بعد هذه الجَوْلة فى الدولة الإسلامية نستطيع أن نحدِّد المواطن والبيئات الجغرافية النشيطة التى أنتجت الشعر العربى فى العصر الأموى ، وأن نعرف أى أنواع الشعر كان يسود فى هذاه المواطن والبيئات . فأما اليمن ومصر وبلاد المغرب والأندلس فكانت متخلفة ولم يكن لها أىُّ خَطَر فى الشعر . والمواطن والبيئات التى كان فيها شعرٌ يستحق الدرسَ حقًّا هى الأربعة الأخرى : الحجاز ونجد والعراق والشام .

أما الحجاز فاختصت بنوع من الشعر الغنائى الكامل الذى كان يُصْحَب بالعزف والضرب على الأدوات الموسيقية . وأما نجد فاختصت بنوع من الغزل العُذْرى العفيف ، كما اختصت بشعر يدور حول الشكوى من الخراج والصدقات وعَسْف الولاة والسعاة . وأما العراق ، فهى أهم بيئة نشط فيها الشعر ، وقد اختصت بنوعين كبيرين منه ، هما : الشعر السياسى والشعر القَبَلى . أما الشعر السياسى فشعر الخوارج والشيعة ومَنْ كان يقابلهما من أنصار الأمويين ، إذ نجد لكل حزب من هذه الأحزاب شعراءه الذين كانوا يناضلون عنه نضالاً عنيفًا . ولم ينقطع هذا النضال يومًا طوال العصر ، إذ كانت أصوات هؤلاء الشعراء ترتفع فى كل مكان فى العراق، إما من قِبَل الخوارج أو من قِبَل الشيعة أو من قِبل أنصار بنى أمية . وأما الشعر

القَبَلى فشعر العصبيات والفخر والهجاء ، إذ اصطفَّت القبائل فى البصرة والكوفة ، وأثيرت الأحسَابُ والأنسابُ القديمة ، ونهض شعراء كل قبيلة يذودون عنها ويرمون خصومها بكل ما يستطيعون من حجارة قذف مُدْمية ، وسهام هجاء مُصْمِيَة ، يريدون أن يقهروهم ويظهروا عليهم ويغمروهم . ويخيَّل إلى الإنسان كأن العراق تحوَّل إلى ما يشبه بركانًا ثائرًا ، فدائمًا هذه الحُمَم القَبَلية ، ودائمًا أختها السياسية تصوَّب من كل مكان وإلى كل مكان .

أما الشام فكان لها نشاط فى الشعر أيضًا لهذا العصر ، ولكنه لم يكن يأتى من داخلها ، فقد كان أكثر سكانها من اليمنية الذين لا يمارسون الشعر على نحو ما يمارسه العدنانيون والمضريون ، إنما كان يأتى من خارجها ، إما بسبب هؤلاء الشعراء الذين كانوا يَفِدون على الخلفاء من الحجاز ونجد والعراق ينشدونهم مدائحهم ليأخذوا جوائزهم ، وإما بسبب القبائل القيسية من عامر وسُلَيم التى هاجرت هناك بعد الفتح واشتركت مع القبائل اليمنية فى معارك حربية وأخرى لسانية أداتُها الشعر كما أسلفنا ، وإما بسبب هذه الأسرة القرشية الحاكمة من بنى أمية التى أمعن أبناؤها فى الترف ، وتفننوا فى ضروب اللهو ، واتصلوا بفن الغناء والموسيقى الذى شاع فى الحجاز . فكان ذلك كله سببًا فى أن تحاول الشام أواخرَ هذا العصر أن تشارك مشاركة قوية فى الشعر الغنائى ، الذى عُرف فى الحجاز ، على نحو ما نجد عند الوليد بن يزيد بن عبد الملك . وهكذا دائمًا كانت الشام تَنْقل من الخارج ، فنشاط الشعر فيها لهذا العصر غالبًا نشاط طارئ .